نحو النور ...

بقلم عبد الحق فاضل

تلك المأثرة البابلية ـ ملحمة قلقامش ـ التي الفها عبقري مجهول، حوالي القرن العشرين ـ قبل الميلاد ـ تعد احدى قمم الادب البشري ، وام الملاحم العالمية المشهورة ، لا من حيث القدم وحسب ولكن من حيث المادة والمعاني ايضا . وتلك حقيقة يجهلها اكثر القراء ، وقد آن ان يعرفوها كما عرفها الغربيون وكتبوا عنها .

والى جانب ما يدهشنا فيها من تحليقات فنية وذهنية سامقة ، نجد في اسلوبها بدائية محببة كانت تقليدية في الادب البابلي الذي شاع وعمت طريقته في العالم القديم ، وظهر اثره في كبريات المآثر .

ومن مظاهر هذه البدائية التكرار بقصد الاستمتاع بمعنى الكلمة انصار المذاهب الحديثة في الادب .

وقد تولينا (تلحين) هذه السمفونية البابلية ، نعني نظمناها اضافة لمسات قليلة ، مستمدة من معاني الملحمة نفسها وروحها ، تعميقا وليست المقطوعتان التاليتان من اعلى ما في الملحمة من تحليقات لها مغزاها الذي يمكننا ان نعطيه عنوان : « نحو النور » .

كان قلقامش يبحث عن الحياة الخالدة ، فسار الى جده (اوتا ـ نفيشتيم) « Uta nafishtim » ـ نوح ـ الذي نجا من الطوفان فوهبه الالهة خلود الحياة ، ليسأله ـ قلقامش ـ كيف ينال الحياة الخالدة هو الاخر . فلقي في طريقه اهوالا منها « البشر العقارب » الذين ياتيك فيما يلي خبرهم ، والذين يرمز بهم المؤلف الى شيء لم يهتد الباحثون بعد الى الكشف عن حقيقته ، ونحسبه كان معروفا لدى مواطنيه فلم يجد حاجة لايضاحه .

ويبلغ التذوق الموسيقي الاوج من الملحمة في المقطوعة الثانية التي جعلنا عنوانها : « طريق الشمس » ، وهو بساعاته الاثنتي عشرة المضاعفة (١) ، طريق يملأ مسالكه الظلام . وقد لاح لنا من الظلام وعدد الساعات ان الساحر البابلي يرمز بهذا الطريق الى « الليل » . واذا به يجعل الزمان (الليل) مكانا (طريقا) للسفر والانتظار معا .

وباسلوب التكرار يلحن لنا شاعرنا المجهول هذه المقطوعة ـ طريق الشمس ـ فاذا بها اشبه بموسيقى « المسيرة » (المارش) المدوية المثيرة . فنرجو حين يصل اليها القارىء ان يتلوها بشيء من التأكيد على الوزن ليستمتع بانغامها المختلطة بقرع الطبول وصفقات الصنوج.

ولهذه المعزوفة ـ عدا قيمتها المسيرية ـ قيمتها الرمزية العالية ، المزدوجة : اقتحام الخطر في سبيل الهدف اولا ، والظلام المؤدي الى النور ثانيا . وهما مغزيان متقاربان لكنهما مختلفان ، يتجلى الاول في « البشر العقارب » والثاني في « طريق الشمس » . مغزيان نهافت عليهما الادباء منذ القديم ، وما يزال فناننا البابلي متفوقا .

ونظن ان براعته في استغلال المقطوعة الثانية على الاخص لرمزيته الزمكانية ، تؤهله لان يتلقى برقيات التهنئة والحسد حتى من كبار الادباء المعاصرين ، في القرن العشرين ـ نعني بعد الميلاد :

(١) الساعة المضاعفة باصطلاح البابليين تساوي قرابة احد عشر كلومترا .

البشر العقارب

.. وسار قلقامش حتى جاء يوما جبلا مهيبا
وكان هذا جبلا
يدعونه التوأم (ماشو)
فعندما ابصره
اكبره
قلقاشو
ماشو الذي يحرس للشمس الشروق والغروبا
كل صباح ومساء
منكبه ..
يعلو الى سمك السماء
وصدره ..
يغوص حتى العالم السفلي في الغياهب
يحرس بابه العظيم (البشر العقارب)
منظرهم :
يبتعث الرهبة في الاوصال
لحاظهم :
موت بلا امهال
لهم جلال مرعب
يطغى على الجبال !
الحارسون الشمس كل مشرق ومغرب
فحينما رآهمو
قلقامش اصفر من الهلع
لكنه شجع نفسه
وصار يدنو منهمو
يغالب الفزع
مجترئا
يرفع صدره ورأسه
حتى غدا امامهم
يسير في تبختري !
اذذاك نادى الرجل العقرب زوجته
قال لها منبئا :
« يا هذه ، جيئي انظري !
ان الفتى الذي اتانا جسمه
من معدن الالوهه ! »
فاقبلت زوجته ، وحدقت مشدوهه
قالت تجيبه : « اراني قد عرفت خلقته
هذا الذي ثلثاه رب ثلثه الاخر انسان ! .. »
وجعلت تلحظه
فاحصة خلقته
باعجب الالحاظ
.. ثم دعاه الرجل العقرب فاتحا فمه
قال مخاطبا سليل الارباب
بهذه الالفاظ :
وكلمه
« ما كان اغراك بهذا السفر الجسور

حتى قطعت ذلك الدرب الطويل ، لانني
وجئتني
عبر بحار صعبة العبور ؟
اذكر لي القصد الذي
من اجله
اتيتني ! »
.. فقال قلقامش في الجواب :
« اتيت قاصدا ابي
اوتا ــ نفشتم
لانه اصبح من طائفة الارباب
اريد ان اسأله
عن عقدة الحياة والممات »
.. فقال ذاك الرجل العقرب فاتحا فمه
مخاطبا قلقامش المقدام :
« لم يستطع قبلك انس ان يرى
ذلك ، يا قاشو
ما اجتاز انسان مسارب الجبال ماشو
فانها يملؤها في جوفها الظلام
مدى اثنتي عشرة ساعة مضاعفه
وليس فيها ضياء !
طريقها الالام والاحزان والعناء
ليس يطاق حرها
ليس يطاق قرها
وليس من زاد سوى الحسرة والبكاء ! »
.. اجاب قلقامش : « اني قد عزمت السير في
كل حال :
وان يكن طريقي الاحزان والاوجاع والعناء
في الحر والقر ، وفي الحسرة والبكاء
فافتح لي الساعة باب الجبال ! »
.. ففتح العقرب فاه قائلا يجيبه
« مر اذن ، قلقاشو
ولا تخف !
لقد اذنا لك ان تجتاز ماشو
عساك ان تقطعها ..
سلاسل الجبال ماشو
وتبلغ الهدف !
ثم تعود سالما بك الخطى
ها هو باب الشمس مفتوح امامك .. »

طريق الشمس

استمع الكلام قاشو
وسار مثلما اشار العقرب الانسان
فاجتاز باب الشمسي
ليأسى
وسار في طريقها
رحلة ساعة مضاعفه
كان الظلام دامسا
ولم يكن ضياء
لم يستطع رؤية ما امامهو
او ما وراءهو
.. وسار ساعتين ، ثم اربعا
مضاعفه
كان الظلام دامسا
ولم يكن ضياء
لم ير ما امامهو
او ما وراءهو
ما اكثر الـ
احزان والـ
اوجاع والـ
عناء !
ثم مشى ..
ثلاث ساعات مضاعفه
كان الظلام دامسا
والرعب دامسا
القر كان قارسا
الحر كان حامسا
ولم يكن ضياء !
لم ير ما امامهو
او ما وراءهو
وسار ، سار خمس ساعات مضاعفه
وسار ، سار ست ساعات
مضاعفه
وسبع ساعات مضاعفه
.. ثم مشى ..
ثمان ساعات
مضاعفه
ولم يزل ثم الظلام دامسا
والرعب دامسا
وكان في الحر وفي القر انين وبكاء !
ولم يكن ضياء
يريه ما امامهو
او ما وراءهو
وسار ، ثم سار غير عابىء
بأي شيء صادفه
وبعد سير تسع ساعات مضاعفه
احس بالريح الشماليه
تلطم وجهه طريه
ولم يزل ثم الظلام دامسا
والرعب دامسا
ولم يكن ضياء !
لم يستطع رؤية ما امامهو
او ما وراءهو
.. وسار ، سار عشر ساعات
مضاعفه
.. وبعد احدى عشره
تألق الشمس بدا
من المدى
لعينه المنتظره
.. وبعد ان سار اثنتي عشرة ساعة مضاعفه
عم الضياء ..

عبد الحق فاضل